دولة الإمارات العربية المتحدة
دبـي

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

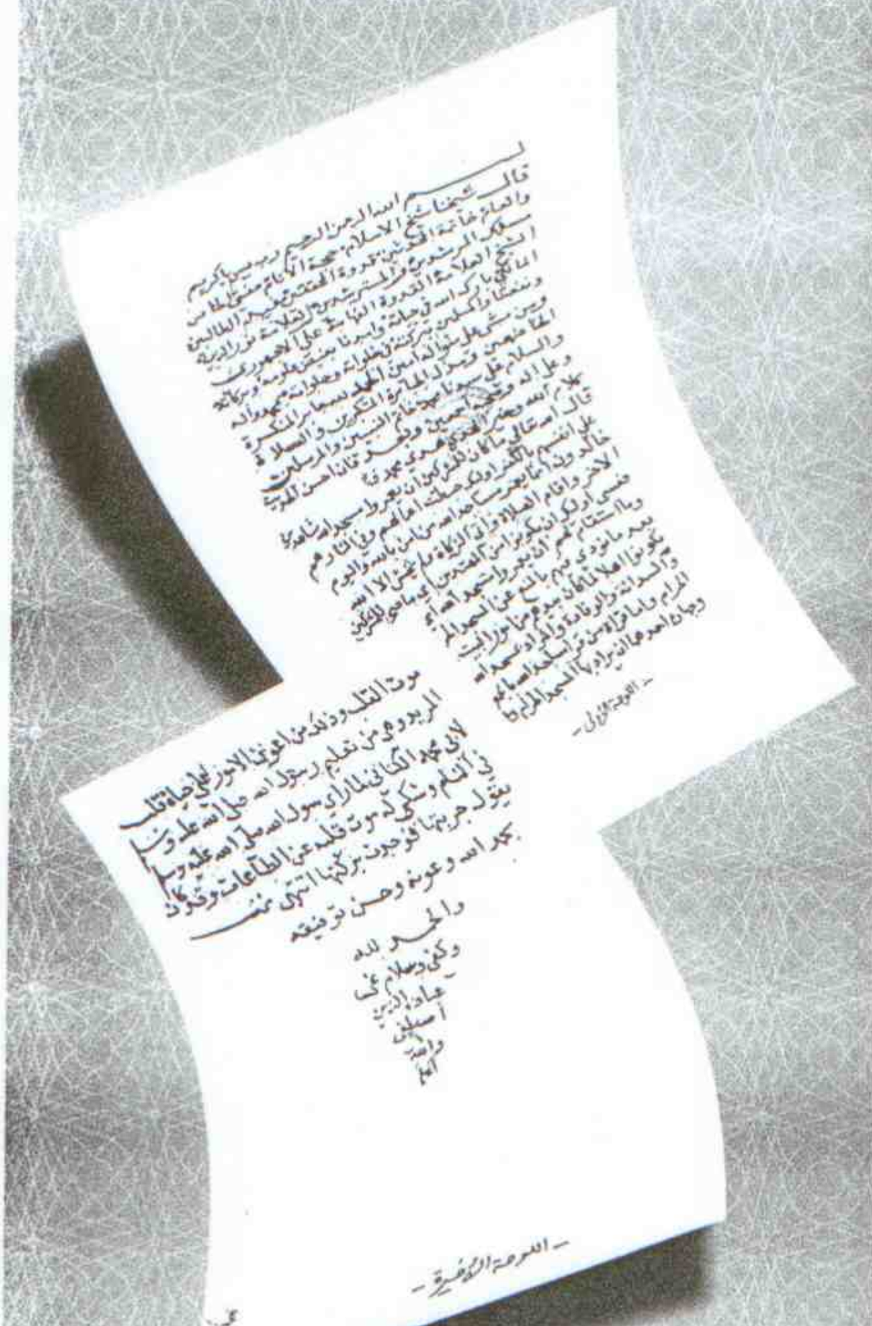
- اللوحة الأولى -
- اللوحة الأخيرة -

إسلامية فكرية محكّمة

العدد السابع و العشرون
ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ - يونيو ٢٠٠٤م

جهد الشاطبي (٧٩٠هـ) في التفسير الموضوعي الكشفي

الدكتور

أحمد عثمان رحماني*

---

* أستاذ النقد الأدبي المشارك بكلية الدراسات الإسلامية والعربية – دبي

ملخص البحث:

البحث يتناول موضوع التفسير الموضوعي الكشفي ليؤصل له، لذلك بدأ بمقدمة تاريخية تهدف إلى ببيان معنى الإدراك الكلي وأهميته وأصوله في الثقافة الإسلامية، سواء في مجال التفسير أو النقد الأدبي ثم تدرج ليكشف بوضوح على تطور الفكرة في التفسير لتقترح في البداية منهجا للتفسير بناء على فكرة الكليات عند الشاطبي ثم تدخل مرحلة التطبيق عند البقاعي في تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور مرورا بجهود العلماء في نظرية المناسبات وقواعدها كما تجلت عند الزركشي والسيوطي ليصل إلى الهدف الأساسي وهو جهد الشاطبي في التفسير الموضوعي فبدأ بالتعريف بالشاطبي تمهيدا لجهوده النظرية والتطبيقية في مجال التفسير الموضوعي القائم على فكرة الكليات أو الإدراك الشامل لسور القرآن، وبيان أنواع الوحدات عنده ثم الآليات المنهجية التي قام عليها منهجه.

إن هذا البحث يتساءل إذن عن الجهد المبذول عند الشاطبي تحديدا، لإثبات الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية وهي مشكلة تناقش فيها القدماء مثل عز الدين ابن عبد السلام الذي استبعد وجودها لاختلاف أسباب النزول⁽¹⁾، ومثل الشاطبي الذي حاول أن يبرهن عليها نظرية وتطبيقا،

من كل ذلك يتبين أن الحديث في الوحدة الموضوعية في القرآن حديث قديم وطريقه شاق تحفه صعوبات جمة، فكيف تناوله الشاطبي وما الجهود التي بذلها ليقدم نظريته في هذا المجال الحيوي من مجالات الثقافة الإسلامية؟ و من تقدمه من العلماء المحققين فأثر فيه ؟ وما المنهج الذي اعتمده في ذلك؟ وهل اكتفى بالنظرية أم تجاوزها إلى التطبيق؟

---

(١) عز الدين بن عبد السلام: كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: ص: ٢٢١: وانظر ذلك في: أحمد رحمانيي: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا:ص:٣٦

المقدمة: -

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمةالقرآن وكفى بها نعمة والصلاة والسلام على البشير النذير محمد رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين وبعد:

فإن هذا البحث يتناول جهود الشاطبي في التفسير الموضوعي، والشاطبي هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، الإمام العلامة المحقق القدوة الحافظ الجليل المجتهد، ولد بغرناطة حوالي سنة ٧٣٠ وأخذ العلم عن أبي عبد الله محمد بن الفخار البيري وغيره بالأندلس كما أخذ عن ابن مرزوق التلمساني والشريف السبتي في المغرب العربي ومن مؤلفاته: الموافقات، والاعتصام، والمجالس، وشرح الخلاصة من ألفية ابن مالك في النحو، والإفادات والإنشاءات... توفي سنة ٧٩٠ للهجرة ١٣٨٨ للميلاد، يعد أحد أبرز العلماء الذين تحدثوا في مسألة الكليات في مجال الأصول(٢) لكنه صال وجال في التنظير لكثير من القضايا العلمية التي منها التفسير الموضوعي.

فالأصل في هذا البحث هو الكشف عن جهود الشاطبي في التأصيل للتفسير الموضوعي الكشفي الذي يرمي إلى كشف الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم، وهو غير التفسير الموضوعي التجميعي الذي يرمي إلى جمع الآيات التي تتناول موضوعا واحدا ثم تعمل على تركيبها للخروج بموضوع واحد، كالذي اعتمده باقر الصدر في كتابه مقدمات في التفسير الموضوعي(٣) أو الذي تناوله محمد حجازي في كتابه «الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم»(٤)

ونحب بادئ ذي بدء أن نشير إلى أن مصطلح «التفسير الموضوعي» من المصطلحات المعاصرة جدا، على أن الفكرة التي يقوم عليها قديمة جدا أيضا، إذ يقوم أساسا على فكرة الإدراك الشمولي والنظرة الكلية للأشياء والأفكار والقضايا، بعدِّه بديلا للتفكير والإدراك

---

(٢) خير الدين الزركلي: الأعلام: المجلد الأول: ص: ٧٥: دار العلم للملايين بيروت لبنان ط ١٩٨٦/١

(٣) باقر الصدر: مقدمات في التفسير الموضوعي: ط/ ١٩٨٠

(٤) محمد حجازي: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ص٣٣- ٣٤/ مطبعة المدني ١٩٧٠ وانظر: أحمد رحماني: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا ص:٣٢ منشورات جامعة باتنة/ و أحمد رحماني مصادر التفسير الموضوعي:ص٤٠ مكتبة وهبة /القاهرة

التجزيئي، تلك النظرة التي عرفها ابن خلدون بقوله: «الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا لإدراك من الناطق وغيره، وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات، وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطقية على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهي الكلي، ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضا عليهما باعتبار ما اتفقا فيه، ولايزال يرتقي في التجريد إلى الكلي الذي لايجد كليا آخر معه يوافقه فيكون لأجل ذلك بسيطاً»(٥). فالمسألة أساسا مسألة طريقة ومنهج في الإدراك ترتقي من إدراك الجزئيات البسيطة إلى إدراكها في إطار كلي يبنى من العلاقة القائمة بين تلك الجزئيات ليكون مدركا كليا، ومن الطبيعي أن ذلك الكلي قد يتحول إلى مدرك بسيط بالنظر إلى العلاقة بينه وبين كليات أخرى تماثله ليتكون مدرك كلي جديد أقوى منه.

ونحن إذ نبحث هذه القضية إنما نرمي إلى أن نقف على جهود رجل نعد منهجه في هذا المجال من مجالات تفسير القرآن عظيمة جدا، ولكي نبرز الفكرة بصورة واضحة لابد من الوقوف عليها بصورة موجزة في الإطار التاريخي ثم نحلل القضية عند الشاطبي، وهذا يستدعي تقسيم البحث إلى أربعة مباحث تتناول: تاريخ الفكرة في الثقافة الإسلامية عند النقاد والمفسرين، ثم نضجها عند الشاطبي وطريقة تطبيقه على سورة من سور القرآن الكريم، لنصل إلى الآليات المنهجية التي اعتمدها في ذلك.

المبحث الأول:

فكرة الوحدة الموضوعية

أولا: الإطار التاريخي العام لفكرة الوحدة الموضوعية:

إن هذا الأسلوب المعتمد على فكرة الإدراك الكلي في النظر إلى الأشياء والمعارف ليس حديث العهد، فهو من حيث النظر والممارسة قديم جدا يعود إلى ما قبل القرن الرابع

---

(٥) ابن خلدون: المقدمة: ٤٥٤-٤٥٥

الهجري، حيث نجد الجاحظ في القرن الثالث يؤلف كتابا في الإعجاز بالنظم(٦)، ثم تنضج الفكرة في القرن الرابع إذ نجد الحاتمي(٧) على سبيل المثال يهتم كثيرا بالنظرة الكلية للنص، وفي الواقع كانت نظرات الحاتمي قد وضحت هذه المسألة توضيحا كبيرا فبلغت في كتابه «حلية المحاضرة» مبلغا عميقا جعل الدكتور إحسان عباس يقول عنه بحق: «إنه ينفذ من ذلك إلى تصور عجيب لا نجده عند من سبقه من النقاد، وهو أول تصور من نوعه لوحدة تعد عضوية»(٨)، قال ذلك بصدد تقديمه لمقولة للحاتمي يشبه فيها بناء القصيدة بخلق الإنسان هي: «إن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالم جماله»(٩).

إن هذا النص يترجم بحق فلسفة النظرة الكلية الشاملة للنصوص، ويترجم أيضا فهم الحاتمي للوحدة العضوية التي إن اعتبرها إحسان عباس «وحدة عضوية لا تؤدي معنى النمو» فإنه يعترف بأنها «تؤدي معنى التكامل والاعتدال والانسجام»(١٠) وأكثر من ذلك كله إن عبارة الحاتمي التي يقول فيها: «تعفي معالم جماله» يمكن أن تشير إلى إدراكه العميق لسر جمال القصيدة، إذ يعني ما يقوله، إن فساد النظم فساد لوحدة البناء في القصيدة وإعفاء لمعالم جمالها، فمعالم الجمال تتأتى من التناسب والانسجام والتكامل والنظم والترتيب والتلاحم، ومما يؤكد ذلك انتباهه إلى جسور الانتقال في القصيدة الجاهلية ليبين من ذلك أنها وسيلة من الوسائل التي يعتمدها الجاهلي للحفاظ على وحدة القصيدة «لتأتي في تناسب صدورها وإعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة، والخطبة الموجزة، لا ينفصل جزء منها عن جزء...»(١١).

---

(٦) الزمخشري: الكشاف: ١/ ١٥، وانظر أحمد رحماني نظريات الإعجاز:٦٣- ٣٧/ مكتبة وهبة/ مصر

(٧) الحاتمي محمدبن الحسن بن المظفر هو أحد نقاد القرن الرابع الهجري توفي سنة: ٣٨٨ - من أثاره: الرسالة الموضحة - والرسالة الحاتمية - وحلية المحاضرة للتوسع انظر: معجم الأدباء: ١٨: ١٥٦

(٨) تاريخ النقد الأدبي ص: ٢٥٧

(٩) ابن رشيق: العمدة: ٢:١١٧ وانظر إحسان عباس تاريخ النقد: ٢٥٧ وحسين بكار: بناء القصيدة:٢٩٧ ومعنى تتخون تتحيف كما صوبها إحسان عباس

(١٠) تاريخ النقد الأدبي: ص: ٢٥٧

(١١) حلية المحاضرة:١/ ٢١٥ وانظر بناء القصيدة مرجع سابق:١٩٧

وهذه الطريقة في الفهم والتفكير هي النظرة التي جسدها بعد ذلك في القرن الخامس الهجري عبقري الدراسات الإعجازية – بدون منازع – عبد القاهر الجرجاني (–٤٧١) في دراساته القيمة حول نظرية النظم، إذ إن معنى النظم كما عرف عنده وهو بصدد الحديث عن العلاقات بين أجزاء العبارة يعني الوحدة والانتظام والتناسب والترتيب و التعلق فيقول: «أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك»(١٢).

نضج الفكرة ودخولها في حقل التفسير:

ولا غرو والحال هذه أن نجد فكرة إدراك الكليات قد نضجت واستوت لتتبلور في منهج يقترحه العلماء لتفسير القرآن وفق نظرة كلية شاملة تنطلق من الكل المتكامل لتتوصل إلى العناصر المكونة له عن طريق تحليل ذلك الكل دون نسيان ضرورة فهم الجزء في ظل السياق الكلي للنص، لما في ذلك من أهمية في الفهم للنص وللمقاصد الشرعية بصورة أو ضح يعين عليها تفسير الجزئيات في النسق الذي ترد فيه، ونجد ذلك مدروسا بصورة واضحة عند علماء كبار في مجال الدراسات الشرعية والقرآنية، منهم الشاطبي (– ٧٩٠ هـ) في كتاب الموافقات، والبقاعي (– ٨٨٥ هـ)(١٣) في تفسير «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»(١٤)، والسيوطي (– ٩١١ هـ) في أكثر من كتاب ومنها كتاب «أسرار ترتيب القرآن»، وكل واحد منهم قدم فكرته عن المنهج في مقالات نظرية دقيقة، بل لم يكتفوا بذلك إنما أعقب بعضهم الدراسة النظرية بنموذج تطبيقي رفيع المستوى حقا؛

---

(١٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز:٤٤

(١٣) البقاعي هو:برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة٨٨٥ للهجرة / ١٤٨٠ للميلاد، محدث ومؤرخ ومفسر، من آثاره القيمة: تفسير «نظم الدرر في تناسب الأيات والسور»، وكتاب «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» وكتاب «الفتح القدسي في آية الكرسي» وكتاب «القول المفيد في أصول التجويد لكتاب ربنا المجيد» فسر القرآن الكريم بمنهج فريد من نوعه يقع في ثلاثين جزءا ويقوم على منهج التفسير الموضوعي الذي يتخذ من نظريتي المناسبات والنظم قاعدة أساسية له/ الأعلام للزركلي: المجلد: ١/ ص: ٥٦ /انظر تفصيل حياته في مقدمة كتاب «الفتح القدسي في آية الكرسي»: تحقيق عبد الحكيم الأنيس: دار البحوث للدراسات الاسلامية وإحياء التراث: دبي – الإمارات العربية المتحدة: ٢٠٠١

(١٤) أحمد عثمان رحماني:مصادر التفسير الموضوعي: ص: ٦ –١١ مكتبة وهبة مصر القاهرة ١٩٩٨

أما الأول فهو الشاطبي موضوع البحث وهو المقدم من حيث التاريخ والسبق للإبداع(١٥)، وأما الثاني وهو البقاعي فقد بين كل ذلك في تفسيره المسمى «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» وهو تفسير فريد من نوعه في المكتبة العربية والإسلامية القديمة والحديثة، فهو صاحب السبق في التطبيق على القرآن كله، فحق له أن يقول مفتخرا في مقدمته: «هذا كتاب عجاب رفيع الجناب في فن ما رأيت من سبقني إليه ولا عول ثاقب فكره عليه» ويقول بخصوص المنهج المتبع فيه: «ثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب»(١٦)، ولاشك أن هذا المفسر كان قد تأثر كثيرا بمن سبقه كالحرالي(١٧) (-٦٣٨) وأما الثالث فهو السيوطي الذي خصص كتابا لدراسة «أسرار ترتيب القرآن» ووقف خصوصا عند سبعة أنواع من صور التناسب بين أجزاء القرآن وهي:

١- بيان مناسبات ترتيب سور القرآن وحكمة وضع كل سورة منه في موضعها من السياق العام لترتيب القرآن

٢- بيان أن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها

٣- بيان وجه اعتلاق فاتحة السورة بالخاتمة التي قبلها

٤- مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له

٥- مناسبة أوائل السور لأواخرها

٦- مناسبات ترتيب آياته واعتلاق بعضها ببعض وارتباطها وتلاحمها وتناسقها

---

(١٥) من الطبيعي أن القصد هنا ليس إيجاد الفكرة لأن فكرة وحدة السورة واضح من اسمها: قال السيوطي: وفي تسوير السورة تحقيق لكون السورة لمجردها معجزة وآية من آيات الله تعالى، الإتقان في علوم القرآن ١/ ٢٦٤ فالحديث عن بداية الفكرة قديم وإنما نقصد بالإبداع هنا إبداع المنهج عند الشاطبي

(١٦) نظم الدرر في تناسب الأيات والسور: ج: ١ ص ٥

(١٧) الحرالي هو علي بن أحمد بن الحسن الحرالي مفسر من علماء المغرب أصله من حرالة من أعمال مرسية ولد ونشأ في مراكش ورحل إلى المشرق وتصوف ثم استوطن ببجاية وعاد إلى المشرق وتوفي في حماة بسورية، من كتبه «مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل» في التفسير قال ابن حجر جعله قوانين كقوانين «أصول الفقه»/ الأعلام للزركلي م٤ ص ٢٥٦ وانظر عنوان الدراية ٨٧- ٩٧

٧- مناسبة أسماء السور لموضوع السورة (١٨)

ويهمنا هنا أن نتحدث عن فكرة التفسير الموضوعي عند الشاطبي لاعتقادنا أنها بحق فكرة سابقة لعصرها عمقا ومنهجا، وأنها هي التي مهدت لتفسير البقاعي الطريق الصعب والشاق الذي سلكه، وسنبين ذلك في موضعه بإذن الله.

ثانيا: فكرة الكليات وعلاقتها بالتفسير الموضوعي عند الشاطبي:

لقد كتب الشاطبي (-٧٩٠هـ)(١٩) في القرن الثامن للهجرة كثيرا عن فكرة الكليات وأهميتها في البناء الفكري وما يستلزمه من طرائق تيسر الفهم بصفة عامة وفهم القرآن بصفة خاصة، فهو حينما يتحدث عن العلاقة بين المكي من القرآن والمدني نراه يفكر بمنهج الكليات والجزئيات فيقول: «القواعد الكلية هي الموضوعة أولا والتي نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة ثم تبعها أشياء بالمدينة كملت بها القواعد التي وضع أصلها بمكة»(٢٠)، وحين يتحدث عن العلاقة بين العناصر في النصوص يوجه الأنظار إلى ضرورة إدراك العلاقة بينها في إطار التفكير الشمولي فيقول: «إذا رأيت في المدنيات أصلا كليا فتأمله تجده جزئيا بالنسبة إلى ماهو أعم منه أو تكميلا لأصل كلي، وبيان ذلك أن الأصول الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها خمسة وهي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال»(٢١)، بل إنه يرى أن «تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي لاجزئي وحيث جاء جزئيا فأخذه على الكلية»(٢٢)، ونظرا لإدراكه الكبير لأهمية النظرة الكلية لمسائل العلم والفكر ولخطورة دورذلك في الفهم نجده يلح على الباحث الحصيف لأن يوجه نظره إلى هذا المنهج فيقول: «محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها فمن أخذ بنص - مثلا - في

---

(١٨) السيوطي: أسرار ترتيب القرآن: ص:٢ - دار الاعتصام - القاهرة: والسيوطي: هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي جلال الدين، إمام حافظ مؤرخ وأديب له نحو ٦٠٠ مصنف منها الإتقان في علوم القرآن وتمام الدراية والأشباه والنظائر والتحبير لعلم التفسير وتدريب الراوي وترجمان القرآن وتفسير الجلالين ولباب النقول في أسباب النزول... توفي ٩١١هجرية حوالي ١٥٠٥ ميلادية/ الأعلام للزركلي: ٣/ ٦٥

(١٩) الشاطبي سبق التعريف به وانظر / خير الدين الزركلي: الأعلام: ١/ ٧٥

(٢٠) الموافقات: ١٠٢/٣

(٢١) نفسه: ٢٦/٣

(٢٢) الموافقات:١١٦/٣

جزئي معرضا عن كلّيه فقد أخطأ، وكما أن من أخذها لجزئي معرضا عن كلّيه فهو مخطئ، كذلك من أخذ بالكلي معرضا عن جزئيه ... ودل ذلك على أن الكلي لايعتبر بإطلاقه دون اعتبار الجزئي، وهذا كله يؤكد لك أن المطلوب المحافظة على قصد الشارع لأن الكلي إنما ترجع حقيقته إلى ذلك، والجزئي كذلك أيضا فلا بد من اعتبارهما معا في كل مسألة»(٢٣).

وهذه الفكرة الأخيرة مهمة جدا فيما نحن بصدد معالجته إذ تحدد الإطار المنهجي الذي تفهم فيه النصوص القرآنية، ويبين أن الفهم التجزيئي للنصوص قد لا يفي بتحقيق المراد من النص، كما أن الفهم الكلي وحده في غياب التحليل للجزئيات من أجل التغلغل في عمق النص غير مفيد في تحقيق الهدف، وهكذ يضعنا أمام مشكلة منهجية جديدة مفادها «محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها»، كما أن «الجزئيات مقصودة معتبرة في إقامة الكلي»(٢٤).

وعلى هذا الأساس فإن «إهمال القصد في الجزئيات يرجع إلى إهمال القصد في الكلي، لإنه مع الإهمال لايجري كليا بالقصد»(٢٥).

ويبين الهدف من اعتماد المنهج القائم على هذه النظرة فيقول: «المقصود بالكلي هنا أن تجري أمور الخلق على ترتيب ونظام واحد لاتفاوت فيه ولا اختلاف»(٢٦) هكذا يصمم الشاطبي تصميم الواعي بقيمة ما يؤسس له من قواعد منهجية، من شأنها أن تُكوِّن نظرية شاملة في الدراسات العلمية الجادة، تلك التي تتجاوز النظرة التجزيئية البسيطة إلى النظرة الكلية العميقة التي تربط أجزاء النصوص ببعضها، وتربط أجزاء القضايا ببعضها حتى تخرج بصورة واضحة المعالم عن موضوع دراستها، بحيث يصبح النص الكلي يقدر باعتباره مبنيا من مجموع الأجزاء، والنص الجزئي يفهم ضرورة في سياق الكلي، وكل إهمال لأحدهما يعد إهمالا لما به يفهم الآخر.

---

(٢٣) الموافقات: ٣/ ٣-٤

(٢٤) الموافقات:٢/٤١

(٢٥) نفسه: ٢/٤١

(٢٦) نفسه: ٢/٤١

هذه القواعد هي التي سيعنى بها المنهج الذي يقترحه الشاطبي لتفسير القرآن، والذي سيسمى في العصر الحديث باسم : «التفسير الموضوعي الكشفي» وهو منهج مستحدث في تفسير القرآن يستهدف سبر أغوار السور القرآنية لكشف وحدتها الموضوعية والخروج بنظرية حول الموضوع أو بتصور متكامل حوله(٢٧)، وقد عرفه الشيخ الغزالي بقوله: «التفسير الموضوعي يتناول السورة كلها يحاول رسم صورة شمسية لها تتناول أولها وآخرها وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها وتجعل أولها تمهيدا لآخرها وآخرها تصديقا لأولها» ثم عقب على تعريفه بما يشرح بعض الجوانب بقوله «لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة وإن كثرت قضاياها»(٢٨)

وسنقف هنا عند فكرة الشاطبي حول الوحدة الموضوعية في القرآن لنبرز أهم أفكاره في ذلك؛ إذ تعد أفكاره حول التفسير الموضوعي ناضجة جدا على الرغم من تقدمها، لاسيما وقد بينها بنماذج تطبيقية، وسنركز على ثلاث نقاط أساسية؛ نتناول في الأولى الجانب النظري ونتناول في الثانية النموذج التطبيقي، ونتناول في الثالثة دواعي المنهج والآليات الأساسية التي اعتمدها

- الجانب النظري:

يبدو أن الشاطبي عاش عصرا كان الاهتمام بالوحدة الموضوعية فيه واضحا، وكان التساؤل المطروح هو: «وهل للقرآن مأخذ في النظر على أن جميع سوره كلام واحد بحسب خطاب العباد، لا بحسبه في نفسه؟»(٢٩) وهل لسور القرآن موضوعاتها التي تميز كل سورة على حده؟ ثم هل هو وحدة واحدة؟ أم أن مفهوم الوحدة قد تعدد عند الدارسين؟ وإذا تعدد مفهوم الوحدات فما هي؟

أنواع الوحدات في نظر الشاطبي:

لا شك أن الحديث والجدل كان يدور حول ثلاثة أنواع من الوحدات في القرآن، هذا

---

(٢٧) أحمد رحماني: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: ص: ١٢٤ منشورات جامعة باتنة – الجزائر:١٩٩٨

(٢٨) محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن: ١/ ٥

(٢٩) الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة: ٣/٢٥٤

ليس موضع عرض ذلك بصفة عامة، وإنما سنكتفي بالشاطبي، فقد تناول هذا العبقري المبدع حقا فكرة الوحدة الموضوعية في القرآن من جهات ثلاث؛ الوحدة في القرآن كله، و الوحدة في السورة، إلى جانب حديثه عن وحدة النزول:

١ - الوحدة في القرآن كله: بمعنى أن القرآن الكريم يشكل وحدة واحدة لا تناقض بين قضاياه ألبتة، والسر في ذلك أنه يصدر عن مشكاة واحدة لا تعرف التضارب والتناقض، بحيث يفسر بعضه بعضا، وهو ما يفهم من قوله: «فإن كلام الله في نفسه كلام واحد لا تعدد فيه بوجه ولا باعتبار، حسبما تبين في علم الكلام، وإنما مورد البحث هنا باعتبار خطاب العباد تنزلا لما هو من معهودهم فيه، هذا محل احتمال وتفصيل فيصبح في الاعتبار أن يكون واحدا بالمعنى المتقدم، أي يتوقف فهم بعضه على بعض بوجه ما؛ وذلك أنه يبين بعضه بعضا، حتى إن كثيرا منه لا يفهم معناه حق الفهم إلا بتفسير موضع آخر أو سورة أخرى، ولأن كل منصوص عليه فيه من أنواع الضروريات مثلا مقيد بالحاجيات، فإذا كان كذلك فبعضه متوقف على البعض في الفهم، فلا محالة أن ما هو كذلك فكلام واحد، فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار»(٣٠) وهذا هو أساس منهج التفسير الموضوعي التجميعي، وهو نوع آخر من التفسير الموضوعي ليس هذا موضع الحديث فيه(٣١).

٢- وحدة موضوع السورة: بمعنى أن السورة من القرآن عبارة عن بنية قائمة بذاتها أي إنه أنزل سورا مفصول بعضها عن بعض مما يدل على أن لكل سورة موضوعها الواحد وهو مبرر تجاور الآيات فيها واكتفائها بها، كما يتبين من قوله: «ويصح أن لا يكون كلاما واحدا، وهو المعنى الأظهر فيه، فإنه أنزل سورا مفصولا بينها معنى وابتداء، فقد كانوا يعرفون انقضاء السورة وابتداء الأخرى بنزول (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول الكلام»(٣٢) وهذه الوحدة هي ما يعنى به في العصر الحديث منهج التفسير الموضوعي الكشفي، وهو ما سنعود إليه بالتفصيل لأنه هو موضوع الطرح في المنهج الذي يقترحه الشاطبي في تفسير القرآن.

---

(٣٠) نفسه

(٣١) انظر تفصيل ذلك في: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا ص: ١٥٥ وما بعدها لكاتب المقال، وانظر أيضا باقر الصدر في كتابه: مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن لا سيما المدخل

(٣٢) الشاطبي: نفسه:٣/٤٢٠

٣ – وحدة النزول: وهي الوحدة التي تنشأ عن وحدة المناسبة التي نزلت الآيات بخصوصها وإليها يشير بقوله: «نزول أكثر الآيات التي نزلت على وقائع وأسباب يعلم من إفرادها بالنزول استقلال معناها للإفهام، وذلك لا إشكال فيه»(٣٣).

فالوحدات في نظر الشاطبي إذن ثلاث؛ أولاها وحدة القرآن الكريم كله بحيث يفسر بعضه بعضا كما في قوله تعالى من سورة الفاتحة ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ فإن تفسير ذلك جاء في سورة النساء، أعني قوله تعالى ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا**﴾(٣٤) وثانيها وحدة النزول ويعني ارتباطها بحادث محدد ومناسبة معينة، كما في الآيات المتعلقة بحادثة الإفك، وثالثها وحدة السورة، وهذه الأخيرة تكاد تكون الوحدة التي أولاها الشاطبي الاهتمام الكبيرفي حديثه عن المنهج الذي يقترحه للتفسير بديلا للمنهج التحليلي المألوف القائم على النظرة التجزيئية لآيات السورة، فما هي طبيعة الوحدة في السورة الواحدة من القرآن؟ وكيف عالجها نظريا وتطبيقيا؟ وما هي القواعد المنهجية التي يقترحها؟

طبيعة الوحدة في السورة القرآنية الواحدة:

يهتم الشاطبي كثيرا بوحدة السورة، ومرد ذلك، ما يراه من أهمية في إدراك معاني القرآن إدراكا لايتحقق في النظرة التجزيئية، لذا نراه يقول بعد تحليل مفصل للوحدة في سورة «المؤمنون» فهذا النظر إذا اعتبر كليا في السورة وجد على أتم من هذا الوصف، لكن على منهاجه وطريقه. ومن أراد الاختبار في سائر سور القرآن فالباب مفتوح، والتوفيق بيد الله. فسورة «المؤمنين» قصة واحدة في شيء واحد»(٣٥).

على أن الشاطبي يرى أن السورة من القرآن حين نتأملها من هذا المنظور نجد هذه الوحدة التي تشكل السور القرآنية كلها – كما يثبت ذلك الاستقراء الشامل لها – تختلف تبعا للبناء الذي يشكل السورة، فيكون البناء أحيانا وحيد الموضوع متشعب القضايا،

---

(٣٣) نفسه

(٣٤) سورة: النساء ٦٩

(٣٥) الموافقات: ٣/ ٢٥٣

بينما يأتي أخرى وحيد الموضوع والقضية، لذا يقول: «إن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدا بكل اعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور المفصل، وتارة يكون متعددا في الاعتبار، بمعنى أنه في قضايا متعددة؛ كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، واقرأ باسم ربك، وأشباهها ولا علينا أنزلت السورة بكمالها دفعة واحدة، أم نزلت شيئا بعد شيء»(٣٦).

فالشاطبي يفرق هنا بين نوعين من أنواع الوحدة الموضوعية في السورة تبعا لاعتبارات مختلفة هما:

أ – السورة ذات الوحدة الموضوعية المحققة بأي اعتبار، بمعنى أن وحدة القضية هي التي تحكمها بغض النظر عن طولها أو قصرها، وهذا يمثل في نظره أكثر المفصل(٣٧) من السور القرآنية، وهذه الوحدة يمكن أن نسميها الوحدة البسيطة، لأن موضوعها يتناول قضية واحدة غير متشعبة، ومثاله في رأيه « قوله تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ نازلة في قضية واحدة»(٣٨).

ب – السورة ذات الوحدة الموضوعية المتعددة القضايا، وهي التي تشعبت قضاياها عن القضية الأم بصرف النظر عن طول السورة وقصرها، وهذه الوحدة يمكن أن نسميها الوحدة المركبة، وهي وحدة معقدة التركيب في بعض السور الطويلة لدرجة يصعب معها الوقوف على العلاقات بين عناصرها وقضاياها، وهذا يشمل معظم غير المفصل فيقول: «وتارة يكون متعددا في الاعتبار، بمعنى أنه في قضايا متعددة؛ كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، واقرأ باسم ربك، وأشباهها ولا علينا أنزلت السورة بكمالها دفعة واحدة، أم نزلت شيئا بعد شيء»(٣٩) فسورة اقرأ عنده «نازلة في قضيتين الأولى

---

(٣٦) نفسه: ٣/ ٢٤٩

(٣٧) المفصل من آيات القرآن يقصد به هنا أحد الأقسام الأربعة التي قسم على أساسها القرآن وهي: الطوال والمئون والمثاني والمفصل وأول المفصل قيل الجاثية وقيل الحجرات وقيل القتال/ انظر تفصيل ذلك في: البرهان في علوم القرآن للزركشي الجزء الأول /ص: ٢٤٤

(٣٨) نفسه: ٣/ ٢٥٠

(٣٩) نفسه: ٣/ ٢٤٩

إلى قوله تعالى ﴿**علم الإنسان مالم يعلم**﴾ والأخرى مابقي إلى آخر السورة، وسورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة وإن اشتملت على معان كثيرة(٤٠).

ولكن هذا النوع من السور التي تتعدد قضياها تعددا ناجما عن التفريع يمكن النظر إليه من زاويتين تبعا لاعتبارين، اعتبار شكلي له أهداف إعجازية، وهذا يتعلق بصورة النظم الذي انتظمت عليه السورة تبعا لتعدد القضايا، واعتبار مضموني له أهداف فقهية ومعرفية، وهذا يتعلق بطبيعة الأحكام التي تتضمنها السورة، لذلك يقول مستدركا على النوع الثاني المتعدد القضايا: «ولكن هذا القسم له اعتباران:

- اعتبار من جهة تعدد القضايا، فتكون كل قضية مختصة بنظرها، ومن هناك يلتمس الفقه على وجه ظاهر لا كلام فيه ويشترك مع هذا الاعتبار القسم الأول، فلا فرق بينهما في التماس العلم والفقه.

- واعتبار من جهة النظم الذي وجدنا عليه السورة؛ إذ هو ترتيب بالوحي لا مدخل فيه لآراء الرجال، ويشترك معه أيضا القسم الأول، لأنه نظم ألقى بالوحي وكلاهما لا يلتمس منه فقه على وجه ظاهر، وإنما يلتمس منه ظهور بعض أوجه الإعجاز، وبعض مسائل نبه عليها في المسألة السابقة قبل»(٤١).

ومن هنا نستنتج أن الشاطبي يرى أن وحدة السورة يمكن النظر إليها من جهتين، لنحصل على نمطين من أنماط الوحدة؛ وحدة بسيطة ووحدة مركبة:

أ - نمط وحدته قائمة بسبب وحدة الموضوع ووحدة القضية التي يعالجها ويمكن أن نسميه الوحدة البسيطة.

ب - نمط وحدته قائمة على وحدة الموضوع مع تشعب القضايا و هو ما يمكن أن نسميه الوحدة المركبة، ولكن هذه الوحدة المركبة معقدة بعض التعقيد إذ قد يستدعي تشعب المعنى - لتشعب القضايا - تغير المبنى تبعا له، لذلك نجم عن خاصية التركيب تداخل

---

(٤٠) نفسه: / ٢٥٠-٢٥١

(٤١) نفسه

بين النظرة التي يراد منها البحث في المضمون والأحكام الفقهية، والنظرة التي يراد منها البحث في النظم والإعجاز الشكلي ويمكن بيانه كما يلي :

ب -١- وحدة الموضوع مع تشعب القضايا و الأبنية أو الأشكال

ب -٢- وحدة الموضوع والشكل مع تشعب القضايا وتخصصها.

وعندئذ يصبح معنا ثلاثة أنواع هي: {أ+(ب١+ب٢)}

وينتج عن ذلك أن المنهج المعتمد في الدراسة سيختلف باعتبار المقاصد المتوخاة من الدراسة، إما منهج فقهي يبحث باعتبار القضايا التي تحتوي عليها السور، وإما منهج جمالي يبحث باعتبار النظم والإعجاز الجمالي للنص، والشكل الآتي يوضح ذلك:

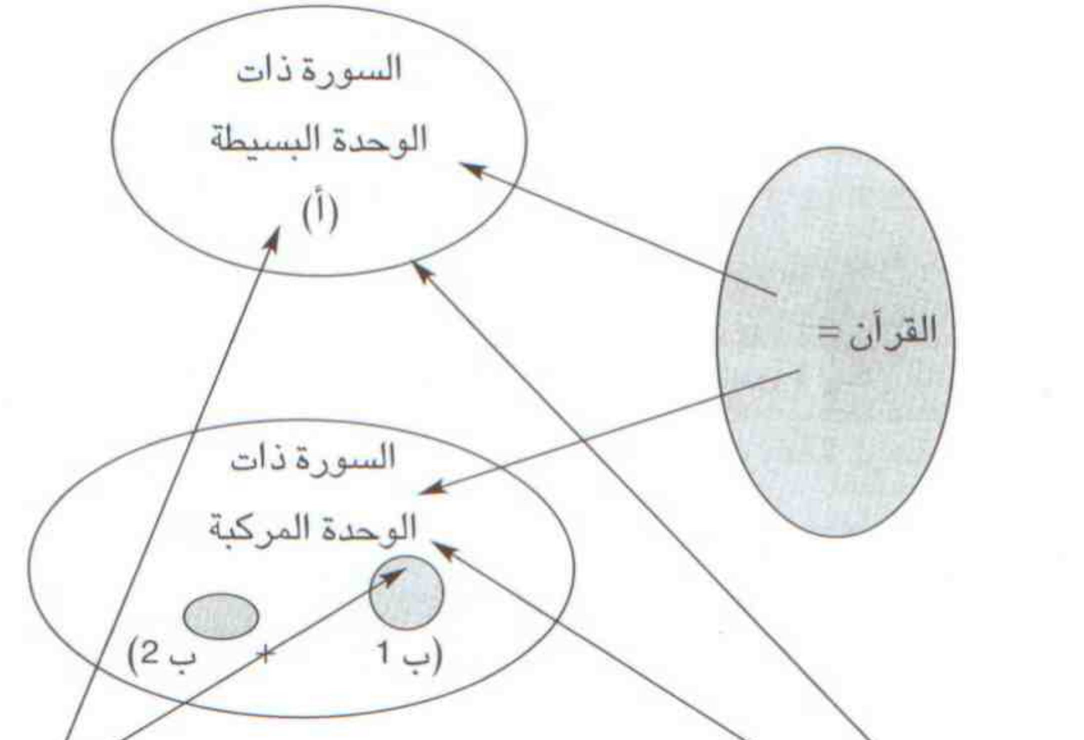
السورة ذات
الوحدة البسيطة
(أ)
القرآن =
السورة ذات
الوحدة المركبة
(ب 1
+
ب 2)
المنهج باعتبار تخصص كل قضية = الفقه
المنهج باعتبار النظم = الإعجاز

المبحث الثاني:

منهج الدراسة: أساسه ودواعيه وآلياته:

١ - أساسه:

بعد أن بين الشاطبي مسألة النظرة الكلية وأهميتها، ووضح معالم النظر إلى الوحدة في السورة اتضح أن المنهج الذي ينبغي أن تدرس به السور القرآنية دراسة قوية وسليمة إنما هو النظرة الكلية الشاملة، فهذه النظرة هي أساس المنهج، لذلك يعقب على الكلام السابق بما يستدعي بيان دور هذه النظرة الكلية في الفهم الصحيح لكل نوع بحسب الهدف المراد من الدراسة، إن في المضمون والأحكام، وإن في الشكل والإعجاز، وهو ما تبينه الفقرة الموالية.

دور الوحدة الموضوعية في تحديد منهج التفسير:

الشاطبي يرى – بعد كل ذلك – أن تفسير القرآن وفهمه يتوقف في جميع الأحوال على النظرة الكلية الشاملة، وأن هذه النظرة هي التي تعين على الفهم العميق لمقاصد الآيات والنصوص؛ لأن الآيات المترابطة يفهم أولها بالوقوف على آخرها ويتوقف فهم آخرها على فهم دلالات أولها؛ بل إن الكلي متوقف فهمه على الجزئي، والجزئي لا يفهم إلا في إطار الكلي، وقد سبقت الإشارة إلى قوله: «الجزئيات مقصودة معتبرة في إقامة الكلي»(٤٢) لأن النص كل متكامل لا يفهم إلا متكاملا بغض النظر عن المقصد من النظرة؛ سواء أكانت بغرض البحث في الإعجاز أو بغرض البحث في الفقه والأحكام والمقاصد الشرعية فيقول: «وجميع ذلك لا بد فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات، فاعتبار جهة النظم مثلا في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود. كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها»(٤٣).

ويضرب لذلك مثلا لبيان فكرة الوحدة الموضوعية وأهمية النظر الكلي ودوره في

---

(٤٢) الموافقات: ٢/ ٤١ انظر ص: ٦ من هذا البحث

(٤٣) الموافقات:٣/٢٥٠

تيسير الفهم مهما تفرعت القضايا عن القضية الأم فيقول: «فسورة البقرة مثلا كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك»(٤٤).

ثم إنه لا يكتفي بعرض هذه الصورة العامة للبقرة بل يعمد إلى الأمثلة ليبين القصد مما يقول تثبيتا للفكرة، وبرهانا على صحة ما يريد تقريره، وبيانا لأسس المنهج الذي يدعو إليه، فيقول: «لابد من تمثيل شيء من هذه الأقسام، فبه يبين ماتقدم، فقوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**﴾ إلى قوله ﴿**كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون**﴾(٤٥) كلام واحد وإن نزل في أوقات شتى، وحاصله بيان الصيام وأحكامه، وكيفية آدابه وقضائه وسائر ما يتعلق به من الجلائل التي لابد منها ولا يبنى إلا عليها، ثم جاء قوله: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** (١٨٨)﴾ الآية، كلاما آخر بين أحكام أخرى، وقوله ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**(١٨٩)﴾ وانتهى الكلام على قول طائفة، وعند أخرى: إن قوله ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت**(١٨٩)﴾ – الآية – من تمام مسألة الأهلة وإن انجر معه شيء آخر كما انجر على القولين معا تذكير وتقديم لأحكام الحج في قوله ﴿**قل هي مواقيت للناس والحج**(١٨٩)﴾(٤٦)

ثانيا: دواعي المنهج:

الشاطبي إذ يركز على أهمية النظرة الكلية يوضح الدواعي والأسباب التي تجعل الاهتمام بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم من المتطلبات الأساسية في تفسير السور القرآنية تفسيرا دقيقا لكون الآيات القرآنية ما تجاورت في السورة القرآنية إلا لتتضافر كي تعبر عن القضايا المتكاملة، أو أجزاء القضية الواحدة المتشعبة، لذلك يأتي على رأس

---

(٤٤) نفسه: ٣/ ٢٥٠

(٤٥) البقرة: ١٨٣-١٨٧

(٤٦) الموافقات: ٣/ ٢٥٠

أسباب البحث في الوحدة الموضوعية في القرآن الفهم الكامل للأشياء والأفكار فيقول: «فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره؛ وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف»(٤٧).

ولأهمية النظرة الكلية في فهم مقاصد الشارع يعمد الشاطبي إلى أن يبين خطورة النظرة التجزيئية على الفهم، ويكشف أن المفسر إن اعتمد المنهج التحليلي وحده – دون النظر إلى التناسب بين الآيات والترابط بينها وتقدير كونها متجاورة لتكون متكاملة وإلا فلا معنى للتجاور – فإنه لن يبلغ المراد من التفسير وأنه سيضل بعيدا عن الحقيقة الكلية فيقول: «فإن فرق – المفسر – النظر في أجزائه (أي أجزاء نص السورة) فلا يتوصل إلى مراده»(٤٨).

و لكن الشاطبي لايعمم القضية إذ إن النظر في القرآن يكون لأهداف مختلفة فيتعين أن تتعدد طرائق النظر مما يحدد مبررا للنظرة الجزئية، وهذا خاص بطبيعة واحدة هي طبيعة البحث اللغوي لا الفقهي أو الإعجازي اللذين يتطلبان النظرة الكلية، فهو هنا يستثني من ذلك حالة واحدة منطقية جدا وهي النظرة اللغوية لما تتميز به من التدقيق الذي يعين التحليل على فهمه فيقول: «فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد ،وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه،لا بحسب مقصود المتكلم»(٤٩) ولكن هذا الاستثناء ليس مطلقا إذ يوجب على الدارس للقرآن أن يعود إلى السياق ليتفهم المعنى فيقول: «فإذا صح له الظاهر على العربية رجع إلى نفس الكلام، فعما قريب يبدو له منه المعنى المراد، فعليه بالتعبد به، وقد يعينه على هذا المقصد النظر في أسباب التنزيل؛ فإنها تبين كثيرا من المواضع التي يختلف مغزاها على

---

(٤٧) نفسه:٢٤٩/٣

(٤٨) الموافقات:٢٤٩/٣

(٤٩) نفسه:٢٤٩/٣

الناظر»(٥٠)، وعلى هذا يتبين أن اللغة وأسباب النزول وسائل ينبغي الاستعانة بها للفهم الكلي، وأن النظر فيها باعتبارها وسائل يصح أن يكون - مؤقتا - جزئيا، فالباحث في القرآن لابد له من وقفة عند لغة النص من جهة، ووقفة عند مناسبة نزول الآية، وهذه كلها ذات طبيعة تجزيئية ولكنها ليست مقصودة لذاتها، فهي وسيلة لفهم النص غير أنها وسيلة أساسية لها منهجها الخاص في فهمها هو المنهج التجزيئي، لذلك يمكن اعتماده هنا، بل ربما كان واجبا تقتضيه طبيعة هذه الخطوة في المنهج.

ثالثا: الآليات التي يقوم عليها منهج الشاطبي:

يقوم منهج الشاطبي كما يتبين من النصوص النظرية والنموذج التطبيقي على قاعدة أساسية تنبثق عنها بقية القواعد الجزئية.

١- هذه القاعدة الأساسية هي كون الفهم السليم للنص القرآني يتوقف على النظرة الكلية الشاملة له، بحيث تبحث العلاقة بين أول السورة وآخرها، إن من جهة النظم وإن من جهة القضية الموضوعية وتفرعاتها، إن كانت من جنس القضايا المتفرعة؛ لأن الآيات القرآنية يتعلق بعضها ببعض.

٢- فهم مقصود القرآن متوقف على الفهم الشامل لا الفهم الجزئي المتقطع لأن توزيع النظر في الأجزاء لا يحقق المقصود من التفسير والتأمل في السورة باعتبارها نصا متكاملا، يتطلب فهم أجزائه النظر في السياق الذي ترد فيه.

٣- الوحدة في القرآن متحققة قطعا ويمكن النظر إليها من ثلاث جهات :

أ - الوحدة المتحققة في القرآن كله عائدة لوحدة مصدره لذا يتوقف فهم بعضه على بعض ويفسر بعضه بعضا.

ب - وحدة موضوع السورة سواء أكانت وحدة بسيطة أو وحدة مركبة، كما تبين ذلك سابقا

ج - وحدة النزول، إذ نزل وفق مناسبات وظروف مما يجعل المكي وحدة والمدني وحدة

---

(٥٠) الموافقات:٣/٤١٤

٤- النظر في أسباب النزول لفهم الأغراض مما يساعد على إدراك أسرار التجاور للآيات القرآنية والسور، وأسرار وحدة القضية داخل السورة ذات الوحدة المركبة.

٥- ضرورة التدقيق في مسائل الدلالة اللغوية التي تشكل النص لأن النص في النهاية لغة بها يفهم، وبفهم أسرارها يتم الإدراك الشامل والصحيح للنص.

٦- الانتباه لقاعدة بناء المتأخر- نزولا - على المتقدم، فيقول: «المدني من القرآن ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل وإلاً لم يصح، والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي، كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبني على متقدمه، دل على ذلك الاستقراء وذلك إنما يكون ببيان مجمل أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق أو يفصل ما لم بفصل أو تكميل ما لم يظهر تكميله»(٥١)

٧- اعتماد عنصر التكرار في إثبات الوحدة الموضوعية للسورة، وقد جاء ذلك في التطبيق السابق من سورة المؤمنين فبين أن لفظ «بشر» كان هو اللفظ المحوري في الفكرة المبرهن عليها لذلك تكرر كثيرا كما في قوله تعالى **﴿ما هذا إلا بشر﴾** وقوله **﴿ولئن أطعتم بشرا﴾**. ومثاله لفظ (الملأ) وهما لفظان يردان للدلالة على النظرة الضدية للكفار تلك النظرة القائمة على الترفع والاستكبار

٨- اعتماد عنصر الترادف(٥٢) كما في قوله تعالى **﴿إن هو إلا رجل﴾** أي ماهو إلا بشر فجاء برجل مرادف للفظ المكرر (بشر). على أن ينظر إلى الترادف هنا من زاوية واسعة يمكن اعتبارها أسرة لغوية

٩- عنصر التماثل ويتبين ذلك من قوله: **﴿وأن هذه أمتكم أمة واحدة﴾** إشارة إلى التماثل بينهم، وأنهم جميعا مصطفون من البشر.

١٠- قاعدة ربط خواتم القضايا بالمقدمات فيقول «ثم ختم هذا المعنى بنحو مما به بدأ، فقال: **﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون** - الى قوله: **هم لها سابقون﴾**.

---

(٥١) الموافقات: ٢/٢٤٤-٢٤٥

(٥٢) هذا بالنظر إلى من يقول بالترادف، أما من لايقول بالترادف كما الحال في كتاب الفروق لأبي هلال العسكري فلا شك أن هذه الآلية سيتعامل معها بشيء من التوسع المعروف في المجاز

١١- الاهتمام بالسياق لحل المشكلات والمعضلات المتعلقة بالمعاني كا ختلاف القصة الواحدة في العرض من سورة إلى أخرى فيقول: «إن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل»(٥٣) ويقول في موضع آخر: «وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال، والجميع حق واقع لا إشكال في صحته» ويقول عن سورة المؤمنون: «غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة».

١٢- الدعوة لاختبار المنهج للتأكد من صحته: «فهذا النظر إذا اعتبر كليا في السورة وجد على أتم من هذا الوصف، لكن على منهاجه وطريقه. ومن أراد الاختبار في سائر سور القرآن فالباب مفتوح، والتوفيق بيد الله. فسورة المؤمنين قصة واحدة في شيء واحد».

١٣- الدعوة لتطبيق المنهج لأهميته في الفهم والتفسير فيقول: «وعلى حذو ما تقدم من الأمثلة يحتذى في النظر في القرآن لمن أراد فهم القرآن. والله المستعان»(٥٤).

المبحث الثالث:

النموذج التطبيقي :

تمثل سورة المؤمنين أهم نموذج للتفسير الموضوعي الكشفي الذي تميز الشاطبي بطرحه في هذه الفترة المبكرة من عمر النظرة الكلية والشاملة للأشياء والأفكار والقضايا، وقد عرضها بهدف البرهنة على أهمية، بل ضرورة، النظرة الكلية لفهم القرآن؛ فقد عنى بها إذن بيان أسس منهج جديد للتفسير، ولكي تتضح الفكرة سننقل النص كاملا ثم نعود إلى التعقيب، وهذا نص تفسيره لسورة «المؤمنون»: قال الشاطبي: «وسورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة،وإن اشتملت على معان كثيرة؛ فإنها من المكيات، وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان، أصلها معنى واحد، وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى:

- أحدها تقرير الوحدانية لله الواحد الحق...

---

(٥٣) الموافقات:٣/٢٤٩

(٥٤) الموافقات: ٣/٤١٩

- والثاني تقرير النبوة للنبي محمد، وأنه رسول الله إليهم جميعا، صادق في ما جاء به من عند الله إلا أنه وارد على وجوه أيضا كإثبات كونه رسولا حقا...

- والثالث إثبات أمر البعث والدار الآخرة وأنه حق لا ريب فيه، بالأدلة الواضحة فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عامة الأمر وماظهر ببدئ الرأي خروجه عنها فراجع إليها في محصول الأمر ويتبع ذلك الترغيب والترهيب والأمثال والقصص وذكر الجنة والنار ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك»(٥٥).

وبعد دراسة المقدمة وبيان أنها هي التي تحدد موضوع السورة وقضاياه المتشعبة، ويكشف عن العلاقة بين هذه القضايا فيما بينها، ويبين أنها ترتبط بمعنى واحد هو العقيدة، وأن ذلك هو موضوع المكي جملة، يرجع ليبين ذلك بدقة في سورة المؤمنين فيقول:

«فإذا تقرر هذا وعدنا إلى النظر في سورة المؤمنين - مثلا - وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه. إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة، التي هي المدخل للمعنيين الباقيين، وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية، ترفعا منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم، أو ينال هذه الرتبة غيرهم إن جاءت فكانت السورة تبين وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها، وبأي وجه تكون على أكمل وجوهها حتى تستحق الاصطفاء والاجتباء من الله تعالى، فافتتحت السورة بثلاث جمل:

- (إحداها) وهي الآكد في المقام - بيان الأوصاف المكتسبة للعبد التي إذا اتصف بها رفعه الله وأكرمه، وذلك قوله: ﴿**قد أفلح المؤمنون** - إلى قوله: **هم فيها خالدون**﴾ (المؤمنون ١- ١١).

- (والثانية) بيان أصل التكوين للإنسان وتطويره الذي حصل له، جاريا على مجاري الاعتبار والاختيار، بحيث لا يجد الطاعن إلى الطعن على من هذا حاله سبيلا.

- (والثالثة) بيان وجوه الإمداد له من خارج بما يليق به في التربية والرفق، والإعانة على

---

(٥٥) الموافقات:٣/٢٥١

إقامة الحياة، وأن ذلك له بتسخير السماوات والأرض وما بينهما، وكفى بهذا تشريفا وتكريما»(٥٦).

وبعد أن ينتهي من عرض مقدمة السورة، ويربط بين عناصرها، يشرع في تحليل القسم الثاني من السورة، لينبه إلى أن قضيتها هي تاريخ الأنبياء مع الناس الذين بعثوا فيهم، وليكشف عن العامل المشترك بين أساليب مخاطبتهم لأنبيائهم مبينا أنه الترفع الذي تعكسه آليتان متضادتان هما: بشرية الرسل، وكون المعارضين من الملأ، فيركز على العناصر المشتركة في جدالهم ليكشف كيف تتكرر كثيرا، فيقول:

«ثم ذكرت قصص من تقدم مع أنبيائهم واستهزائهم بهم بأمور منها كونهم من البشر: ففي قصة نوح مع قومه قولهم: ﴿**ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم**﴾ (المؤمنون: ٢٤). ثم أجمل ذكر قوم آخرين أرسل فيهم رسولا منهم، أي من البشر لا من الملائكة، فقالوا: ﴿**ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه**﴾ (المؤمنون: ٣٢) الآية: ﴿**ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون**﴾ (المؤمنون: ٣٤) ثم قالوا: ﴿**إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا**﴾ (المؤمنون: ٣٨) أي هو من البشر، ثم قال تعالى: ﴿**ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه**﴾ (المؤمنون:٤٤). فقوله (رسولها) مشيرا إلى أن المراد رسولها الذي تعرفه منها، ثم ذكر موسى وهارون ورد فرعون وملئه بقولهم: ﴿**أنؤمن لبشرين مثلنا؟**﴾ (المؤمنون: ٤٧) الخ. هذا كله حكاية عن الكفار الذين غضوا من رتبة النبوة بوصف البشرية، تسلية لمحمد عليه الصلاة والسلام، ثم بين أن وصف البشرية للأنبياء لا غض فيه، وأن جميع الرسل إنما كانوا من البشر، يأكلون ويشربون كجميع الناس، والاختصاص أمر آخر من الله تعالى، فقال بعد تقرير رسالة موسى: ﴿**وجعلنا ابن مريم وأمه آية**﴾ وكانا مع ذلك يأكلان ويشربان، ثم قال: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات**﴾ (المؤمنون:٥١) أي هذا من نعم الله عليكم، والعمل الصالح شكر تلك النعم، ومشرف للعامل به، فهو الذي يوجب التخصيص، لا الأعمال السيئة. وقوله: ﴿**وأن هذه أمتكم أمة واحدة**﴾ (المؤمنون:٥٢) إشارة إلى التماثل بينهم، وأنهم جميعا مصطفون من البشر. ثم ختم هذا المعنى بنحو مما به بدأ،

---

(٥٦) نفسه: ٢٥٢/٣

فقال: **﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾** – الى قوله: **﴿هم لها سابقون﴾**(٥٧) (المؤمنون:٥٧-٦١).

وبعد أن يستعرض كل ذلك يشرع في بيان العلاقة بين المعاني التي كانت موضع الجدل وتلك التي عرضت في المقدمة ليربطها ببعضها ويكشف عن علاقتها بقضية العقيدة المعروضة كأساس للسورة فيقرر: «وإذا تؤمل هذا النمط من أول السورة إلى هنا فهم أن ما ذكر من المعنى هو المقصود، مضافا إلى المعنى الآخر وهو أنهم إنما قالوا ذلك وغضوا من الرسل بوصف البشرية، استكبارا من أشرافهم، وعتوا على الله ورسوله، فإن الجملة الأولى من أول السورة تشعر بخلاف الاستكبار، وهو التعبد لله بتلك الوجوه المذكورة، والجملة الثانية مؤذنة بأن الإنسان منقول في أطوار العدم وغاية الضعف، فإن التارات السبع أتت عليه وهي كلها ضعف إلى ضعف، وأصله العدم، فلا يليق بمن هذه صفته الاستكبار، والجملة الثانية مشعرة بالاحتياج إلى تلك الأشياء والافتقار إليها، ولولا خلقها لم يكن للإنسان بقاء بحكم العادة الجارية. فلا يليق بالفقير الاستكبار على من هو مثله في النشأة والخلق. فهذا كله كالتنكيب عليهم والله أعلم.»(٥٨)

بعد ذلك الربط ينتقل إلى القسم الموالي ليكشف عن مسألة أخرى تمثل عنصرا مكررا في السورة يمثل الوجه المقابل لحديث الكفار عن بشرية الأنبياء وهو حديثهم عن شرفهم لغرض الانتقاص من قيمة الرسل عليهم السلام، ومن ثم سيكون اللفظ المكرر هنا هو (الملأ) فيكشف عن ذلك قائلا : «ثم ذكر القصص في قوم نوح: فقال **﴿الملأ الذين كفروا من قومه﴾** والملأ هم الأشراف وكذلك فيمن بعدهم: **﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم﴾** الآية: وفي قصة موسى: **﴿أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾** ومثل هذا الوصف يدل على أنهم لشرفهم في قومهم قالوا هذا الكلام. ثم قوله: **﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾** – إلى قوله: **﴿لا يشعرون﴾** رجوع إلى وصف أشراف قريش، وأنهم إنما تشرفوا بالمال والبنين، فرد

---

(٥٧) نفسه ٣/٢٥٢

(٥٨) الموافقات:٣/٢٥٣

عليهم بأن الذي يجب له الشرف من كان على هذا الوصف وهو قوله: ﴿**إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون**﴾(٥٩).

ينتقل بعد ذلك إلى القسم الأخير من السورة (من الآية ٦٣ إلى نهاية السورة: الآية١١٨) ليحلل الآيات التي تشكل الخاتمة بقوله: «ثم رجعت الآيات إلى وصفهم في ترفهم وحال مآلهم، وذكر النعم عليهم، والبراهين على صحة النبوة، وأن ما قال عن الله حق من إثبات الوحدانية، ونفى الشريك وأمور الدار الآخرة للمطيعين والعاصين، حسبما اقتضاه الحال والوصف للفريقين»(٦٠)

ويختم تفسيره للسورة بإشارة منهجية قائلا: «فهذا النظر إذا اعتبر كليا(٦١) في السورة وجد على أتم من هذا الوصف، لكن على منهاجه وطريقه. ومن أراد الاختبار في سائر سور القرآن فالباب مفتوح، والتوفيق بيد الله. فسورة المؤمنين قصة واحدة في شيء واحد.

وبالجملة فحيث ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وهارون، فإنما ذلك تسلية لمحمد عليه السلام وتثبيت لفؤاده، لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة، فتذكر القصة على النحو الذي له مثله. وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال، والجميع حق واقع لا إشكال في صحته. وعلى حذو ما تقدم من الأمثلة يحتذى في النظر في القرآن لمن أراد فهم القرآن. والله المستعان»(٦٢).

---

(٥٩) الموافقات:٣/ ٢٥٣

(٦٠) نفسه

(٦١) أي أن بيانه لذلك إجمالي لاتفصيلي ولو أنه اعتبر التفصيل لكان ظهور ارتباط أجزاء السورة بعضها ببعض وأنها لبيان الأمور الثلاثة التي ذكرها أولا أوضح مما قال (المحقق....)

(٦٢) الموافقات:٣/ ٢٥٣-٢٥٤

وخلاصة القول:

إن الشاطبي قد تحكم تحكما قويا في مسألة الإدراك الكلي وأهميته، وفصل القول في الفرق بين قيمة الإدراك الكلي والإدراك الجزئي، وبين أن كل نوع يصلح في موضعه ومن ثم عالج في ضوء تلك النظرية المتكاملة منهج التفسير الموضوعي الكشفي، الذي يهدف إلى اكتشاف موضوع السورة القرآنية، فوقف على قواعده وآلياته ودواعيه وقدم نموذجا للتطبيق برهن فيه على إمكانية التفسير بناء على الوحدة الموضوعية للسور القرآنية.

تلك هي النتائج التي توصل إليها البحث بخصوص جهد الشاطبي وهي جهود – إن لم نقل تتجاوز الدراسات الحديثة فلا شك أنها تتناسب تماما مع الجهود الجادة التي حققتها الدراسات الحديثة كما تتجلى في دراسة الشيخ عبد الله دراز حين يقول: «لقد كان للنجوم القرآنية في تنزيلها ظاهرتان مختلفتان، وسبيلان قلما يلتقيان، ولقد خلص لنا من بين اختلافهما أكبر العبر في أمر هذا النظم القرآني، فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها، ونظرت إلى ما مهد لها من أسبابها فرأيت كل نجم رهينا بنزول حاجة ملمة أو حدوث سبب عام أو خاص إذا لرأيت في كل واحد منها ذكرا محدثا لوقته ... ولرأيت فيه كذلك كلا قائما بنفسه لايترسم نظاما معينا يجمعه وغيره في نسق واحد، ولو أنك نظرت إليها في الوقت نفسه فرأيتها وقد أعد لكل نجم منها ساعة نزوله سياج خاص يأوي إليه سابقا أو لاحقا وحدد له مكان معين في داخل ذلك السياج متقدما أو متأخرا إذا لرأيت من خلال ذلك التوزيع الفوري المحدود أن هناك خطة تفصيلية شاملة قد رسمت فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها، ... فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، وما من نجم جعل في مكان ما من السورة آخرا أو أولا ثم وجد عند أبد الدهر مصرفا ولا متحولا»(٦٣).

---

(٦٣) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم: ص: ١٥٠/ نشر وتوزيع: دار الثقافة الدوحة:١٩٨٥/١٤٠٥ للهجرة

قائمة المصادر والمراجع:

**- القرآن الكريم

١- أسرار ترتيب القرآن: السيوطي دار الاعتصام - القاهرة

٢- الأعلام: خير الدين الزركلي دار العلم للملايين بيروت لبنان ط ١٩٨٦/٧

٣- بناء القصيدة في النقد العربي القديم - يوسف حسين بكار: دار الأندلس ط:١٩٨٣/٢

٤- تاريخ النقد الأدبي: إحسان عباس: دار الثقافة العربية بيروت ط١٩٨٣/٤

٥- التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا: أحمد رحماني: منشورات جامعة باتنة:الجزائر ١٩٩٨

٦- حلية المحاضرة: الحاتمي محمد بن الحسن الحاتمي: (صورة عن نسخة القرويين بفاس رقم ٥٩٠ المغرب.

٧- دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني: تصحيح محمد عبده الشنقيطي ومحمد رشيد رضا- دار المعرفة ١٩٨١ بيروت لبنان

٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق: تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد - دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء - د.ت

٩ - الفتح القدسي في آية الكرسي - البقاعي: برهان الدين: تحقيق عبد الحكيم الأنيس: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث - دبي / الإمارات العربية المتحدة٢٠٠١

١٠- كتاب الإشارة إلى الإيجازفي بعض أنواع المجاز عز الدين بن عبد السلام:

١١- الكشاف: الزمخشري: دار المعرفة بيروت د ت

١٢- مصادر التفسير الموضوعي: أحمد رحماني: مكتبة وهبة - القاهرة مصر: ١٩٩٨

١٣- المقدمة:ابن خلدون: تحقيق علي عبد الواحد القاهرة ١٩٦٠

١٤- مقدمات في التفسير الموضوعي: محمد باقر الصدر: دار التوجيه الإسلامي - بيروت.

١٥- الموافقات في أصول الأحكام - الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي تعليق الأستاذ الشيخ محمد حسين مخلوف - دار الفكر للطباعة والنشر - دون ذكر المكان وتاريخ الطبع

١٦- النبأ العظيم:نشر دار الثقافة: محمد عبد الله دراز: الدوحة قطر/ط:١٩٨٥

١٧- نحو تفسير موضوعي للقرآن: الغزالي محمد - دار الشروق: ط١٩٩٢/٢

١٨- نظريات الإعجاز: أحمد رحماني مكتبة وهبة/ مصر١٩٩٨

١٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ البقاعي: برهان الدين: دار الكتب العلمية بيروت:ط:١٤١٥/١هـ-١٩٩٥م

٢٠- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد حجازي: / مطبعة المدني ١٩٧٠

Abstract

This article endeavors to explain in depth the subject of the objective interpretation. The article starts with an historical introduction showing the origins of the objective interpretation in Islamic culture. The article then continues to survey the contributions of some Muslim scholars, such as Al-Suitti, in the field of interpretation. The contribution of Al-Shatibbi is investigated in great length, and his discipline in interpretation is questioned in detail.